

سِفْرُ أَيُّوبَ
المحاضرة ٧: حِكْمَةُ اللَّهِ

ديرليك توماس

هَذِهِ هِيَ الْمُحَاضِرَةُ ٧ لَنَا، وَفِيهَا سَنَنْتَقِلُ إِلَى الْأَصْحَاحِ ٢٨ مِنْ سِفْرِ أَيُّوبَ. الْأَصْحَاحُ ٢٨ مِنْ سِفْرِ أَيُّوبَ. إِنَّهُ قِطْعَةٌ أَدَبِيَّةٌ قَصِيرَةٌ؛ قَصِيدَةٌ قَصِيرَةٌ عَنِ الْحِكْمَةِ. فِي الْوَاقِعِ يُقَدِّمُ أَيُّوبُ إِجَابَتَهُ بَدْءًا مِنَ الْأَصْحَاحِ ٢٦، رَدًّا عَلَى أَقْصَرِ خُطَابٍ قَدَّمَ صَدِيقٌ وَهُوَ بِلَدِّ الشُّوْحِيِّ، وَدَوَّنَ فِي الْأَصْحَاحِ ٢٥. مِنْ ثَمَّ اسْتَنْفَذَ بِلَدِّ طَاقَتَهُ عَقِبَ خَمْسِ آيَاتٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ. ثَمَّ بَدَأَ أَيُّوبُ فِي رَدِّهِ. لَكِنَّ فِي الْأَصْحَاحِ ٢٨، نَحْدُ قِطْعَةٍ أَدَبِيَّةٍ قَصِيرَةٍ. إِنَّهَا تُدَكِّرُنَا بَعْضَ الشَّيْءِ بِمَقَاطِعِ أُخْرَى مِنَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ مِثْلَ أَسْفَارِ أَدَبِ الْحِكْمَةِ؛ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ سِفْرُ الْجَامِعَةِ. وَتُدَكِّرُنَا بَعْضَ الشَّيْءِ بِسِفْرِ الْأَمْثَالِ.

مَا هِيَ الْحِكْمَةُ؟ دَعَوْنَا نَخْتَارُ آيَةً، الْآيَةُ ١٢ مِنَ الْأَصْحَاحِ ٢٨ الَّتِي تَقُولُ: "أَمَّا الْحِكْمَةُ فَمِنْ أَيْنَ تُوجَدُ، وَأَيْنَ هُوَ مَكَانُ الْفَهْمِ؟" بِطَرِيقِ عِدَّةٍ، يَتَنَاوَلُ سِفْرُ أَيُّوبَ الْحِكْمَةَ. أَيْنَ أَجِدُ جَوَابًا لِسُؤَالِ مُشْكَلَةِ الْأَلَمِ؟ أَيْنَ أَجِدُ ذَلِكَ الْحَلَّ لِلْمُعْضَلَاتِ الَّتِي قَدْ أَرَقَّنِي مُنْذُ الْبَدْءِ؟ أَمَّا الْحِكْمَةُ فَمِنْ أَيْنَ تُوجَدُ؟ لَا أَفْصِدُ حِكْمَةَ الشَّيْطَانِ وَلَا أَفْصِدُ حِكْمَةَ الْعَالَمِ، بَلْ أَفْصِدُ حِكْمَةَ اللَّهِ. يَا لَهَا مِنْ مَعْرَكَةٍ قَائِمَةٍ هُنَا، فَهِيَ مَعْرَكَةٌ مِنْ أَجْلِ الْقَلْبِ، وَهِيَ مَعْرَكَةٌ مِنْ أَجْلِ الرُّوحِ، لَكِنَّ هُنَاكَ مَعْرَكَةٌ قَائِمَةٌ مِنْ أَجْلِ الْعَقْلِ. إِنَّهَا مَعْرَكَةٌ مِنْ أَجْلِ الْفَهْمِ هُنَا. إِنَّهَا مَعْرَكَةٌ مَعْرِفِيَّةٌ تُشْنُ فِي سِفْرِ أَيُّوبَ. يَقُولُ أَيْزِكُ وَاتْسُ (Isaac Watts) فِي مَقْطُوعَتِهِ لِلْمَزْمُورِ ١٤٧:

هُوَ مَنْ شَكَلَ النُّجُومَ، تِلْكَ الْأَنْوَارَ فِي السَّمَاءِ.
هُوَ مَنْ أَحْصَى عَدَدَهَا، وَدَعَاهَا بِأَسْمَاءِ،
فَحِكْمَتُهُ وَاسِعَةٌ وَلَا تَعْرِفُ حُدُودَ،
عَمِيقَةٌ تَبْتَلِعُ أَفْكَارَنَا وَعَلَيْهَا تَسُودُ.

"حِكْمَتُهُ وَاسِعَةٌ وَلَا تَعْرِفُ حُدُودَ"، أَيْنَ يُمَكِّنِي أَنْ أَجِدَ الْحِكْمَةَ؟ فَالْأَصْحَاحُ ٢٨ يُعَدُّ نَوْعًا مِنَ الْإِسْتِرَاحَةِ، وَقَصِيدَةٍ، وَحَفْظَةٍ تَأْمَلٍ. فَهُوَ يَبْحَثُ عَنِ الْقِصَّةِ بِأَكْمَلِهَا. يَبْحَثُ أَيُّوبُ عَنِ تَفْسِيرِ حَوْلِ كَيْفِ تَسِيرِ الْأُمُورِ، أُمُورِ الْعَالَمِ وَأُمُورِ الْكَوْنِ وَكُلِّ مَا يَخُصُّ الْكَوْنَ، لَفْهَمِ كُلِّ شَيْءٍ. يَبْحَثُ عَنِ تَفْسِيرِ شَامِلٍ لَفْهَمِ كُلِّ الْأُمُورِ مَعًا؛ لَيْسَ بَعْضُ الْمَكُونَاتِ، بَلْ كُلُّ الْأُمُورِ مَعًا.

مَا هِيَ الْحِكْمَةُ؟ هَذَا أَحَدُ الْأَسْئَلَةِ الَّتِي يَطْرَحُهَا الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ، بِمَا فِيهَا أَسْفَارُ الْحِكْمَةِ، تَطْرَحُ ذَلِكَ السُّؤَالَ. فِي سِفْرِ الْجَامِعَةِ، يَسْأَلُ الْجَامِعَةُ، الْمَعْرُوفُ فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى بِاسْمِ كُوهِيلِيث (Koheleth) الْإِسْمِ الْعِبْرِيِّ، يَسْأَلُ الْجَامِعَةَ:

"أما الحكمة فمن أين توجد؟" فالْحِكْمَةُ، بِحَسَبِ الْمَفْهُومِ الْكِتَابِيِّ، هِيَ الْقُدْرَةُ عَلَى رُؤْيَةِ الرَّغْبَةِ فِي اخْتِيَارِ أَفْضَلِ هَدَفٍ وَأَسْمَاهُ مَعَ أَضْمَنِ وَسَائِلٍ لِتَحْقِيقِهِ. هَذِهِ هِيَ الْحِكْمَةُ الْكِتَابِيَّةُ. فَهَنَّاكَ هَدَفٌ، وَهَنَّاكَ أَيْضًا وَسَائِلٌ لِتَحْقِيقِ ذَلِكَ الْهَدَفِ. كَمَا أَنَّهُ الْهَدَفُ الْأَسْمَى، وَالْهَدَفُ الْأَفْضَلُ. أَيْنَ يُمَكِّنُ إِيجَادَ هَذَا النَّوْعِ مِنَ الْحِكْمَةِ؟

الْعِلْمُ يُقَدِّمُ جَوَابًا. إِنَّهُ الْكَوْنُ الَّذِي نَجِدُ أَنْفُسَنَا فِيهِ. دَعُونَا نَبْدَأُ فِي الْأَصْحَاحِ ٢٨:

لِأَنَّهُ يُوجَدُ لِلْفِضَّةِ مَعْدَنٌ، وَمَوْضِعٌ لِلذَّهَبِ حَيْثُ يُمَحَّصُونَهُ. الْحَدِيدُ يُسْتَخْرَجُ مِنَ التُّرَابِ، وَالْحَجَرُ يَسْكُبُ نُحَاسًا. قَدْ جَعَلَ لِلظُّلْمَةِ نَهَائَةً، وَإِلَى كُلِّ طَرْفٍ هُوَ يَفْحَصُ. حَجَرَ الظُّلْمَةِ وَظَلَّ الْمَوْتَ. حَفَرَ مَنْجَمًا بَعِيدًا عَنِ السُّكَّانِ. بِلَا مَوْطِيٍّ لِلْقَدَمِ، مُتَدَلِّينَ بَعِيدِينَ مِنَ النَّاسِ يَتَدَلَّلُونَ.

أَيُّوبُ هُنَا يَتَحَدَّثُ عَنِ تَعْدِينِ الْمَعَادِنِ، وَالزُّوْلُ إِلَى أَعْمَاقِ الْأَرْضِ بَحْثًا عَنِ الْمَعَادِنِ، بَحْثًا عَنِ الْحَدِيدِ وَالنُّحَاسِ وَالْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ. وَعَبَّرَ تِلْكَ الْأَنْفَاقِ يَطَأُ الْإِنْسَانَ أَمَاكِنَ لَمْ يَسْبِقْ لِأَحَدٍ غَيْرِهِ أَنْ وَطَأَهَا؛ إِلَى أَعْمَاقِ الْأَرْضِ وَظُلْمَتِهَا.

وَيُوضِّحُ فِي الْآيَةِ ٧: "سَبِيلٌ لَمْ يَعْرِفْهُ كَاسِرٌ". فَالطُّيُورُ الْمُحَلَّقَةُ فِي السَّمَاءِ، لَمْ تَنْزِلْ قَطُّ إِلَى تِلْكَ الْمَنَاجِمِ. فَهِيَ خَفِيَّةٌ عَنْهُمْ. وَمَا تَحْتَوِيهِ مَجْهُولٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا.

الآيَةُ ١٠ تَقُولُ: "يَنْقُرُ فِي الصُّخُورِ سَرَبًا، وَعَيْنُهُ تَرَى كُلَّ ثَمِينٍ. يَمْنَعُ رَشْحَ الْأَنْهَارِ، وَأَبْرَزَ الْخَفِيَّاتِ إِلَى النُّورِ". مِنْ ثَمَّ نَجِدُ هُنَا الْإِنْسَانَ الْمُكْتَشِفَ، يَعْتُرُّ عَلَى أَحْجَارٍ ثَمِينَةٍ، وَيَعْتُرُّ عَلَى الثُّحَايِسِ، وَيَعْتُرُّ عَلَى الْفِضَّةِ وَأَيْضًا الذَّهَبِ وَغَيْرِهِ. لَكِنِ "الْحِكْمَةُ فَمِنْ أَيْنَ تَوْجَدُ؟" فَأَنْتِ بِإِمْكَانِكَ الْحُفْرُ فِي الْأَرْضِ، وَسَتَعْتُرُّ عَلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ لَكِنِ "الْحِكْمَةُ فَمِنْ أَيْنَ تَوْجَدُ؟" لَقَدْ حَاوَلَ الْعِلْمُ الْإِجَابَةَ عَنِ هَذَا السُّؤَالِ. الْحِكْمَةُ فَمِنْ أَيْنَ؟ مَا الَّذِي يُفَسِّرُ سَبَبَ الْكَوْنِ؟ مِنْ أَيْنَ أَتَى الْكَوْنُ؟ هَلْ مِنَ الْإِنْفِجَارِ الْكَبِيرِ؟ وَمَاذَا كَانَ قَبْلَ الْإِنْفِجَارِ الْكَبِيرِ؟ مَا الَّذِي تَسَبَّبَ فِي الْإِنْفِجَارِ الْكَبِيرِ؟ مَا الَّذِي كَانَ هُنَاكَ قَبْلَ وَقُوعِ الْإِنْفِجَارِ الْكَبِيرِ بِجُزْءٍ مِنَ الثَّانِيَةِ؟ وَبِالطَّبَعِ، الْعِلْمُ لَا يَمْتَلِكُ آيَةً إِجَابَةً، كُلُّ مَا يَسْتَطِيعُ الْعِلْمُ قَوْلُهُ هُوَ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَيُّ شَيْءٍ.

كَذَلِكَ الْفَلَسَفَةُ حَاوَلَتْ الْإِجَابَةَ عَنِ هَذَا السُّؤَالِ. إِنَّهُ السُّؤَالُ عَيْنُهُ. فَهِيَ، أَيُّ الْفَلَسَفَةِ، تَطْرَحُ السُّؤَالَ، رَبِّمَا، عَلَى نَحْوِ أَكْثَرِ عُمَمًا، لَكِنَّهُ لَا يَزَالُ السُّؤَالُ عَيْنُهُ؛ لَكِنَّهُ مَجْرَدُ صِيغَةٍ أَكْثَرُ تَعْقِيدًا. أَفْكَرُ فِي، نَعَمْ، أَفْكَرُ فِي الْمَوْسِيقِيِّ جُونِ كَيْنج (John Cage) فِي الْقُرْنِ ٢٠. الَّذِي أَلْفَ مَقْطُوعَةٍ مُوسِيقِيَّةٍ، مَقْطُوعَةٍ مُوسِيقِيَّةٍ مَشْهُورَةٍ لِلْعَايَةِ، مَقْطُوعَةٌ بِعُنْوَانِ "أَرْبَعُ دَقَائِقٍ وَثَلَاثِ وَثَلَاثِينَ ثَانِيَةً" وَذَلِكَ لِأَنَّ مُدَّتَهَا تَبْلُغُ ٤ دَقَائِقٍ وَ٣٣ ثَانِيَةً. وَعَلَى مَا أَتَدَكَّرُ أَنَّهَا قَدْ عُرِفَتْ مُؤَخَّرًا فِي

إِحْدَى الْحَفَلَاتِ الْمَوْسِيقِيَّةِ. فَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ صَنْتِ تَامٍّ. لَا أَحَدٌ يَعْرِفُ أَيَّ شَيْءٍ. فَالْأُورْكِسْتَرَا بِأَكْمَلِهَا تَجَلُّسٌ مَحَلَّهَا صَامِتَةً لِمُدَّةٍ ٤ دَقَائِقٍ وَ ٣٣ ثَانِيَةً. لَقَدْ كَلَّفَ بِتَأْلِيفِ هَذِهِ الْمَقْطُوعَةِ الْمَوْسِيقِيَّةِ. لَقَدْ كَانَ يُجَاوِلُ تَقْدِيمَ تَفْسِيرٍ. كَانَ يُجَاوِلُ تَقْدِيمَ تَعْرِيفٍ لِلْحِكْمَةِ. وَهِيَ أَنَّ مَا مِنْ إِجَابَةٍ. فَمَا مِنْ إِجَابَةٍ نِهَائِيَّةٍ. وَمَا مِنْ صُورَةٍ كَبِيرَةٍ. مَا مِنْ تَفْسِيرٍ شَامِلٍ وَجِيدٍ لِفَهْمِ كُلِّ الْأُمُورِ مَعًا. فَهُوَ، أَفْصَدُ جُورُنْ كَيْجُ، هُوَ نِتَاجُ مَذْهَبِ مَا بَعْدَ الْحَدَاثَةِ، أَوْ مَا قَدْ نُظِّلِقُ عَلَيْهِ "الْحَدَاثَةُ الْمُتَأَخَّرَةُ". فَمَا مِنْ صُورَةٍ كَبِيرَةٍ. لَكِنَّ هُنَاكَ صُورَةً صَغِيرَةً، لَكِنَّ مَا مِنْ تَفْسِيرٍ شَامِلٍ.

جُورْجُ لُوكَاسُ (George Lucas) مُخْرِجُ سِلْسِلَةِ حَرْبِ النُّجُومِ وَكَاتِبُهَا، صَحِيحٌ أَنَّهُ صَدَرَ الْجُزْءُ الْأَخِيرُ لَكِنَّ فِي أَجْزَاءِ سَابِقَةٍ مِنْ حَرْبِ النُّجُومِ يُعَلِّقُ جُورْجُ لُوكَاسُ عَنِ مَعْنَى الْحَيَاةِ فَيَقُولُ: "لَا تَسْأَلُ "لِمَاذَا؟" نَحْنُ هُنَا فَحَسْبُ. وَالْحَيَاةُ بَعِيدَةٌ عَنِ الْمَنْطِقِ". هَذِهِ هِيَ فَلَسَفَتُهُ عَنِ الْحَيَاةِ. "فَلْتَصْحَبِكَ الْقُوَّةُ"، وَمَا إِلَى ذَلِكَ. الْحِكْمَةُ فَمِنْ أَيْنَ تُوْجَدُ؟ مَا مَعْنَى الْحَيَاةِ؟ فَهِيَ تَعْنِي "الْقُوَّةُ"، مَهْمَا كَانَتْ. قَلِيلٌ مِنْ هَذَا، وَبَعْضٌ مِنْ ذَلِكَ، قَلِيلٌ مِنَ التَّصَوُّفِ الشَّرْقِيِّ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ.

وَمَاذَا عَنِ الْأَيْفُورِيِّينَ؟ فَلَنَأْكُلُ وَنَشْرَبُ وَنَفْرَحُ لِأَنَّنا عَدَا نَمُوتُ! مَا مِنْ تَفْسِيرٍ كَلِّيٍّ. مَا مِنْ تَفْسِيرٍ شَامِلٍ. أَمَامَكُمْ فَقَطُّ اللَّحْظَةُ الْحَاضِرَةُ أَوْ الْيَوْمُ. فَاثْبَهَجُوا بِهِ. ابْتَهَجُوا قَدْرَ مَا تَسْتَطِيعُونَ، لِأَنَّكُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَا يُخْفِيهِ الْعَدُوُّ. فَمَا مِنْ صُورَةٍ كَبِيرَةٍ.

نَعَمْ، ذَلِكَ هُوَ السُّؤَالُ الَّذِي يَطْرَحُهُ أَيُّوبُ هُنَا فِي الْآيَةِ ١٢. أَمَّا الْحِكْمَةُ فَمِنْ أَيْنَ تُوْجَدُ؟ هَلْ لِلْحَيَاةِ مَعْنَى؟ هَلْ لَهَا مَعْنَى فِي وَجْهِ الْكُورِثِ، أَوْ فِي وَجْهِ التَّجَارِبِ، أَوْ فِي وَجْهِ الصُّعُوبَاتِ؟ هَلْ نَحْنُ تَحْتَ رَحْمَةِ قُوَى عَمِيَاءَ، أَوْ رَحْمَةِ الْقَدْرِ أَوْ الصُّدْقَةِ؟ مَاذَا تَقُولُونَ حِينَ تَقَعُ الْكُورِثُ؟ فَإِحْدَى هَذِهِ الْكُورِثِ وَاقِعَةٌ فِي بَلَدِنَا؛ وَمَدْرَسَةُ سَانْدِي هُوكِ (Sandy Hook) الْإِبْتِدَائِيَّةُ مِثَالٌ عَلَى ذَلِكَ. فَإِحْدَى هَذِهِ الْمَاسِي الْفَطِيعةِ الَّتِي يُصَابُ بِهَا أَيُّ مُجْتَمَعٍ هِيَ مَقْتَلُ أَفْرَادِهِ. مَقْتَلُ شَبَابٍ وَأَطْفَالٍ وَفَتِيَّةِ الْمَدَارِسِ الثَّانَوِيَّةِ وَفَتِيَاتِهَا، وَطُلَّابِ الْجَامِعَةِ. مِنَ الْمُثِيرِ لِلِإِهْتِمَامِ، أَنَّهُ فِي أَعْقَابِ مَأْسَاةِ مَدْرَسَةِ سَانْدِي هُوكِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ، كَتَبَ صَمُوئِيلُ فَرِيدْمَانُ (Samuel Friedman) فِي صَحِيفَةِ نِيُورُوكِ تَايْمِزْ (New York Times): "فِي أَيِّ مَأْسَاةٍ، يَبْدُو أَنَّ الْمَعْنِيَّينَ بِمَذْهَبِ الْإِنْسَانِيَّةِ غَائِبُونَ". هَلْ لَاحْظْتُمْ ذَلِكَ؟ فِي أَيِّ مَأْسَاةٍ، يَبْدُو أَنَّ الْمَعْنِيَّينَ بِمَذْهَبِ الْإِنْسَانِيَّةِ غَائِبُونَ. فَهُمْ لَا يَتَوَافَدُونَ بِشَاحِنَاتِهِمْ أَوْ غَيْرِهَا، لِيُقَدِّمُوا جَلَسَاتٍ مَشُورَةٍ مِنْ مَذْهَبِ الْإِنْسَانِيَّةِ لِيَبْشُرَحُوا وَيُوضِّحُوا الْمَأْسَاةَ الَّتِي قَدْ وَقَعَتْ لِلتَّوْبِ؛ بِأَنَّهُ مَا مِنْ إِلَهٍ، وَمَا مِنْ تَفْسِيرٍ شَامِلٍ. فَفِي النِّهَايَةِ، كُنَّا تَحْتَ رَحْمَةِ الْقُوَى الْعَمِيَاءِ الَّتِي لِلصُّدْقَةِ.

فِي مُجْتَمَعِ عِلْمَانِيٍّ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ، جَمِيعُ الْجِنَازَاتِ الَّتِي تَحْضُرُهَا هَذِهِ الْجَمَاعَةُ، تُلْقَى خِلَالَهَا فِي الْعَالِبِ عِظَةٌ. وَمِنْ الْمُثِيرِ أَنَّهُ، فِي جِنَازَةِ مَدْرَسَةِ سَانْدِي هُوكِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ، حَتَّى الرَّئِيسُ نَفْسُهُ أَلْقَى عِظَةً. فَهُوَ فِي الْوَاقِعِ افْتَبَسَ مِنْ رِسَالَةٍ

كُورِنُوسُ الثَّانِيَّةِ مِنَ الْأَصْحَاحِينَ ٤ وَه. وَكَمَا تَعْلَمُونَ، إِنَّ رِسَالَةَ مَذْهَبِ الْإِنْسَانِيَّةِ غَيْرُ مُجْدِيَّةٍ حِينَ تَقَعُ أَيُّ مَأْسَاةٍ، أَوْ حِينَ نَمُرُّ بِأَيِّ تَجْرِبَةٍ. فَمَتَّبَتُو مَذْهَبَ الْإِنْسَانِيَّةِ لَيْسَ لَدَيْهِمْ أَيُّ شَيْءٍ يُقَدِّمُونَهُ. لَيْسَ لَدَيْهِمْ أَيُّ شَيْءٍ يَقُولُونَهُ. هَلْ تَحْمِلُ الْحَيَاةُ أَيُّ مَعْنَى؟ هَلْ تَحْمِلُ الْحَيَاةُ أَيُّ قَصْدٍ؟ ذَلِكَ مَا فُرِضَ عَلَى أَيُّوبَ أَنْ يَسْأَلَهُ. إِنَّهُ مَا يُفْرَضُ عَلَيْنَا أَنَا وَأَنْتُمْ أَنْ نَنْظُرَ كُلَّمَا نَجِدُ أَنْفُسَنَا تَحْتَ رَحْمَةِ مَأْسَاةٍ مُرْبِعَةٍ، أَوْ أَلَمٍ عَظِيمٍ يَشْمَلُ جَمِيعَ التَّوَّاحِي، أَلَمٍ عَظِيمٍ لِدَرَجَةٍ أَنَّهُ يُفْرَضُ عَلَيْنَا الْأَسْئَلَةَ الصَّعْبَةَ.

كَمَا تَتَذَكَّرُونَ مَا قِيلَ فِي الْأَصْحَاحِ ١٨، بِأَنْ يُسَاقَ إِلَى "مَلِكِ الْأَهْوَالِ". هَذَا كَانَ بِلَدِّ الشُّوَجِيِّ. هَذِهِ كَانَتْ مَوْعِظَتُهُ. وَكَمَا تَتَذَكَّرُونَ، قَبْلَمَا أَدَلَى أَيُّوبُ بِذَلِكَ الْجَوَابِ الْمُدْهِشِ فِي نَهَايَةِ الْأَصْحَاحِ ١٩: "أَمَّا أَنَا فَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ وَلِيِّي". كَانَ بِلَدِّ الشُّوَجِيِّ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْإِنْقِيَادِ إِلَى "مَلِكِ الْأَهْوَالِ" وَذَلِكَ فِي مَوْعِظَتِهِ عَنِ الْمَوْتِ؛ وَعَنْ أَنَّ الْمَوْتَ هُوَ الْمُجْرِي الْعَظِيمُ لِلْمَسَاوَاةِ. الْمَوْتَ هُوَ الْمُجْرِي الْعَظِيمُ لِلْمَسَاوَاةِ. كُلُّ إِنْسَانٍ سَوْفَ يَمُوتُ، الْعَنِيِّ وَالْفَقِيرِ، حَسَنَ الصِّبْتِ وَسَيِّئِ السُّمْعَةِ. كُلُّ إِنْسَانٍ سَوْفَ يَمُوتُ. فَتَحْنُ هُنَا لِفَتْرَةٍ مُوقَّتَةٍ. "أَيَّامُ سِنِينَا هِيَ سَبْعُونَ سَنَةً، وَإِنْ كَانَتْ مَعَ الْقُوَّةِ فَتَمَانُونَ سَنَةً، وَأَفْخَرَهَا تَعَبٌ وَبَلِيَّةٌ". رَبَّنَا كُوَهِيلِيثُ، كَاتِبُ سِفْرِ الْجَامِعَةِ، كَانَ مُحَقِّقًا. فِي أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِلَا مَعْنَى، كُلُّ شَيْءٍ بَاطِلٌ. الْكُلُّ بَاطِلٌ. الْحَيَاةُ وَالْعَمَلُ وَاللَّعِبُ وَالْعَلَاقَاتُ وَالصَّدَاقَاتُ، فَكُلُّ مِنْهَا بَاطِلٌ. وَكُلُّ مِنْهَا سَرَابٌ. إِنَّهَا عَمَامَةٌ. إِنَّهَا عُبَارٌ يَظْهَرُ قَلِيلًا ثُمَّ يَضْمَحِلُّ. كُلُّ شَيْءٍ بِلَا أَيِّ مَعْنَى. كُلُّ شَيْءٍ بِلَا أَيِّ قَصْدٍ.

دَعُونَا نَعُودُ إِلَى الْأَصْحَاحِ ٧ مِنْ سِفْرِ أَيُّوبَ، وَتَحْدِيدًا إِلَى الْآيَةِ ١٧. وَنَقْرَأُ هُنَا عَنْ عِبَثِيَّةِ الْحَيَاةِ، فَيَقُولُ: "مَا هُوَ الْإِنْسَانُ" فِي الْآيَةِ ١٧: "مَا هُوَ الْإِنْسَانُ حَتَّى تَعْتَبِرَهُ، وَحَتَّى تَضَعَ عَلَيْهِ قَلْبَكَ؟ وَتَتَعَهَّدَهُ كُلَّ صَبَاحٍ، وَكُلَّ لِحْظَةٍ تَمْتَحِنُهُ؟" يَبْدُو هَذَا الْمَقْطَعُ كَمَا لَوْ أَنَّهُ تَمَثِيلِيَّةٌ مُجَسَّدُ الْمَزْمُورِ ٨، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ "مَا هُوَ الْإِنْسَانُ حَتَّى تَعْتَبِرَهُ، وَحَتَّى تَضَعَ عَلَيْهِ قَلْبَكَ؟" بِاسْتِثْنَاءِ أَنَّ أَيُّوبَ يَسْأَلُ هَذَا فِي الْعَالِبِ، كَمَا أَعْتَقِدُ، مِنْ وَجْهَةٍ نَظَرٍ تَهَكُّمِيَّةٍ. أَقْصِدُ: مَاذَا يَعْنِي الْإِنْسَانُ؟ لِمَاذَا تُثَبِّتُ تَرْكِيضَكَ عَلَى الْأَفْرَادِ؟ تُثَبِّتُ تَرْكِيضَكَ عَلَى الْإِنْسَانِ؟ "حَتَّى مَتَى"، الْآيَةُ ١٩: "حَتَّى مَتَى لَا تَلْتَفِتُ عَنِّي وَلَا تُرْخِيَنِي رَيْثَمَا أَبْلَعُ رَيْحِي؟ أَأَخْطَأُ؟ مَاذَا أَفْعَلُ لَكَ يَا رَقِيبَ النَّاسِ؟ لِمَاذَا جَعَلْتَنِي عَاثُورًا لِنَفْسِكَ؟"

وَالِي بَقِيَّةِ النَّصِّ. فَأَيُّوبُ يَطْرَحُ السُّؤَالَ "مَا هِيَ الْحَيَاةُ؟" وَ"مَا الْهَدَفُ مِنْهَا فِي النِّهَايَةِ؟" وَ"مَا قَصْدُ وُجُودِي؟" وَ"لِمَاذَا أَنَا هُنَا؟". مَا هَذَا الَّذِي كَتَبَهُ رُوبَرْتُ هِيرِيك (Robert Herrick)؟ -قَصِيدَةٌ حَدِيقَةِ الثَّفَاحِ الدَّهْيِيِّ (Hesperides):

كُلَّمَا اسْتَطَعْتُمْ اجْمَعُوا بَرَاعِمَ الْأَزْهَارِ،
فَالزَّمَنُ الْهَرِمُ يَمْضِي كَالْبَحَارِ؛
وَهَذِهِ الزَّهْرَةُ عَيْنُهَا الْمُنْفَتِحَةُ حَالِيًا،

سَتَذُبَلُ وَتَمُوتُ غَدًا.

كُلَّمَا اسْتَطَعْتُمْ اجْمَعُوا بَرَاعِمَ الْأَزْهَارِ لِأَنَّ الرَّمْنَ يَمْضِي. وَالْوَقْتُ يَمُرُّ وَلَا يَعُودُ. فَالسَّاعَاتُ وَالذَّقَائِقُ وَالنَّوَانِي تَجْرِي بِلَا تَوَقُّفٍ. وَغَدًا سَنَمُوتُ كُلَّنَا. وَسَنَدْفَنُ فِي الْأَرْضِ، وَفِي الْعَالِبِ سَنَنْسَى. جِيلٌ مِنَ الْآنِ، أَوْ بِالْكَثِيرِ جِيلَانِ، وَبِالْكَادِ سَنَجِدُ مَنْ يَتَذَكَّرُ وُجُودَنَا. فَمَا الْعَايَةُ مِنَ الْحَيَاةِ وَمَا مَعْنَاهَا؟

يَرْفُضُ أَيُّوبُ التَّحَلِّيَ عَنِ مُعْتَقَدَاتِ إِيْمَانِهِ. دَعَوْنَا نَعُودُ إِلَى الْأَصْحَاحِ ٢٧ وَتَحْدِيدًا إِلَى الْآيَةِ ٦ مِنْهُ الَّتِي تَقُولُ: "تَمَسَّكَتُ بِرَبِّي وَلَا أَرْخِيهِ". هُنَا، يُمَكِّنُكُمْ إِسَاءَةُ الظَّنِّ فِي أَيُّوبَ فَتَقُولُونَ: "كَيْفَ يُمَكِّنُ لِأَيِّ إِنْسَانٍ التَّفَوُّهُ بِذَلِكَ؟" لَكِنَّ مَا يَقُولُهُ هُنَا: "أَنَا مُتَمَسِّكٌ بِمَوْقِفِي هُنَا". إِذْ تَتَمَثَّلُ حُجَّتُهُ فِي أَنَّهُ لَمْ يَقْتَرِفْ آيَةَ خَطِيئَةٍ تُبَرِّرُ وُقُوعَ هَذِهِ الدَّيْنُونَةِ عَلَيْهِ وَهَذِهِ التَّجْرِبَةَ وَهَذِهِ الْمَشَقَّةَ. الْآنَ وَهُنَا، رُبَّمَا تُوَاجِهُونَ بَعْضَ الْمَشْكَلاتِ مَعَ هَذَا. فَكَلِّفِنِ فَقَدَ صَبْرَهُ عَلَى أَيُّوبَ مَعَ بُلُوغِهِ الْأَصْحَاحِ ٢٧. لَقَدْ كَانَ يُدَافِعُ عَنْهُ، لَكِنَّ الْآنَ وَهُنَا فَقَدَ صَبْرَهُ. لَكِنَّ أَنْتُمْ لَا تَفْقِدُوا صَبْرَكُمْ مَعَ أَيُّوبَ. أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ أَيُّوبَ أَحَدَ رِجَالِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ الْمَشْهُورِينَ. وَمِنَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ قَدْ سَمِعْتُمْ عِبَارَةَ "صَبِرَ أَيُّوبَ".

لَكِنَّ نَحْنُ هُنَا بَعْضَ التَّلْمِيحِ أَنَّ أَيُّوبَ لَمْ يَكُنْ صَبُورًا. أَيُّوبُ مُتَمَسِّكٌ بِرَبِّهِ، وَأَعْتَقَدُ أَنَّ هَذِهِ الْعِبَارَةَ مَوْجُودَةٌ فِي رِسَالَةِ يَعْقُوبَ الرَّسُولِ، نَحْنُهَا فِي الْأَصْحَاحِ ٥ مِنْ رِسَالَةِ يَعْقُوبَ. فَنَحْنُ سَنَدْرُسُ هَذِهِ الْعِبَارَةَ فِي إِحْدَى الْمُحَاضَرَاتِ الْأَخِيرَةِ لِدِرَاسَتِنَا مَعًا، لَكِنَّ هَذِهِ الْعِبَارَةَ "قَدْ سَمِعْتُمْ بِصَبْرِ أَيُّوبَ" رُبَّمَا مِنَ الْأَفْضَلِ تَرْجُمْتَهَا إِلَى "لَقَدْ سَمِعْتُمْ بِتَمَسُّكِ أَيُّوبَ" أَوْ إِلَى "لَقَدْ سَمِعْتُمْ بِتَضَمُّمِ أَيُّوبَ". فَفِي خِصْمِ هَذِهِ التَّجْرِبَةِ، حَافِظْ عَلَى تَمَسُّكِهِ بِقُوَّةٍ. فَقَدْ تَشَبَّهَتْ بِتَمَسُّكِهِ وَتَضَمُّمِهِ بِشِدَّةٍ. وَتَرَى هُنَا فِي الْآيَةِ ٦ مِنَ الْأَصْحَاحِ ٢٧: "تَمَسَّكَتُ بِرَبِّي وَلَا أَرْخِيهِ".

أَيُّوبُ يَنْبَغِي مُعْتَقِدًا إِيْمَانِيًّا، وَيَتَمَثَّلُ هَذَا الْمُعْتَقَدُ الْإِيْمَانِيُّ فِي أَنَّهُ رَجُلٌ مُسْتَقِيمٌ، فِي إِنَّهُ رَجُلٌ تَقِيٌّ. فَهُوَ يُحِبُّ الرَّبَّ. فَقَدْ كَرَسَ حَيَاتَهُ لِحِدْمَةِ الرَّبِّ. فَهُوَ لَيْسَ بِلَا خَطِيئَةٍ، لَكِنَّ اللَّهَ نَفْسَهُ قَدْ شَهِدَ لَهُ بِذَلِكَ فِي مُقَدِّمَةِ السَّفَرِ. فَاللَّهُ أَيْضًا قَدْ أَكَّدَ شَهَادَةَ أَيُّوبَ. "تَمَسَّكَتُ بِرَبِّي". كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَقْتَبِعْ بِتَفْسِيرِ أَصْدِقَائِهِ وَلَا بِمَنْظُورِهِمْ لِلْعَالَمِ بِأَنَّ الْأَلَمَ وَالْمُعَانَاةَ دَائِمًا مَا يَكُونَا عُقُوبَةً، وَدَيْنُونَةً مِنَ اللَّهِ دَائِمًا، وَقِصَاصًا، وَأَنَّكَ تَأْخُذُ مِنَ الْحَيَاةِ مَا تَضَعُهُ فِيهَا. أَنْتِ تَحْصُدُ مَا تَزْرَعُهُ. إِنَّهُ النَّشِيدُ الْوَحِيدُ الَّذِي عَلَى لِسَانِهِمْ، وَالَّذِي ظَلُّوا يَرُدُّونَهُ حَتَّى النِّهَايَةِ. كَانَتْ حُجَّتُهُمْ مُرْبِعَةً، لَكِنَّهُمْ رَافَعُوا عَنْهَا بِرَاعَةٍ. أَمَّا حُجَّةُ أَيُّوبَ فَكَانَتْ صَائِبَةً، لَكِنَّهُ لَمْ يَبْرَعْ فِي الدِّفَاعِ عَنْهَا. "تَمَسَّكَتُ بِرَبِّي". بِمَاذَا تُعْزُونَ إِنْسَانًا يَمُرُّ بِالْمِ أَوْ بِتَّجْرِبَةٍ أَوْ بِضَيْقَةٍ؟ مَعَ أَنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ شَخْصٌ مُؤْمِنٌ وَتَقِيٌّ. إِنَّهُ شَخْصٌ ذُو إِيْمَانٍ. إِنَّهُ شَخْصٌ يُحِبُّ الرَّبَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ. إِنَّهُ شَخْصٌ يَتَّبِعُ الرَّبَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ. إِنْسَانٌ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ كُلَّ شَيْءٍ فِي حَيَاتِهِ، لَكِنَّ تَظَلُّ هَذِهِ

التَّجَارِبُ تَقَعُ، وَهَذِهِ الصُّعُوبَاتُ تُقَابِلُهُ. وَرُبَّمَا يَقُولُ: "مَا الْهَدَفُ مِنْ هَذَا بِرُمَّتِهِ؟ مَا جَدْوَى هَذَا بِرُمَّتِهِ؟ مَا جَدْوَى التَّفْوَى؟ مَا جَدْوَى اتِّبَاعِ الرَّبِّ يَسُوعَ؟ مَا جَدْوَى الإِنْجِيلِ؟ أَنْظِرُوا إِلَيَّ. تَأَمَّلُوا مَا قَدْ حَاقَ بِي". وَأَنْتِ عَلَى بُعْدِ شَعْرَةٍ فَقَطْ مِنْ مَذْهَبِ التَّهَكُّمِيَّةِ؛ أَنْ تَكُونِ مُتَهَكِّمًا عَلَى الْحَيَاةِ، أَنْ تَكُونِ مُتَهَكِّمًا عَلَى اللَّهِ. وَرُبَّمَا أَنْتِ نَفْسُكَ تَطْرَحُ هَذَا السُّؤَالَ. "أَمَّا الْحِكْمَةُ فَمِنْ أَيْنَ تُوجَدُ، وَأَيْنَ هُوَ مَكَانُ الْفَهْمِ؟"

الآن، دَعُونَا نَتَّبِعُ هَذِهِ الْحِجَّةَ. الْآيَةُ ١٣ مِنَ الْأَصْحَاحِ ٢٨:

لَا يَعْرِفُ الْإِنْسَانُ قِيَمَتَهَا وَلَا تُوجَدُ فِي أَرْضِ الْأَحْيَاءِ. الْعُمْرُ يَقُولُ: لَيْسَتْ هِيَ فِيّ، وَالْبَحْرُ يَقُولُ: لَيْسَتْ هِيَ عِنْدِي. لَا يُعْطَى ذَهَبٌ خَالِصٌ بَدَلَهَا، وَلَا تُوزَنُ فِضَّةٌ ثَمَنًا لَهَا. لَا تُوزَنُ بِذَهَبٍ أَوْ فِيزٍ أَوْ بِالْحُزْنِ الْكَرِيمِ أَوْ الْيَاقُوتِ الْأَزْرَقِ. لَا يُعَادِلُهَا الذَّهَبُ وَلَا الزُّجَاجُ، وَلَا تُبَدَّلُ بِإِنَاءِ ذَهَبٍ إِبْرِينٍ.

لَا يُمَكِّنُكَ شِرَاءُ الْحِكْمَةِ. حَتَّى وَإِنْ كُنْتَ رَجُلٌ أَعْمَالٍ أَوْ رَائِدَ أَعْمَالٍ. حَتَّى وَإِنْ حَقَّقْتَ الْمَلَائِينَ، بَلْ حَتَّى وَإِنْ حَقَّقْتَ الْمِلْيَارَاتِ مِنَ الْأَمْوَالِ. حَتَّى وَإِنْ اِمْتَلَكْتَ طَائِرَةً خَاصَّةً وَ ١٧ مَنزِلًا فِي أَمَاكِنَ شَتَّى. حَتَّى وَإِنْ حَقَّقْتَ كُلَّ هَذَا فِي هَذَا الْعَالَمِ. حَتَّى وَإِنْ نَجَحْتَ فِي تَحْقِيقِ كُلِّ ذَلِكَ. فَأَنْتِ مِثَالٌ، نَعَمْ، أَفْضَلُ مِثَالٍ لِلرَّأْسِمَالِيَّةِ. وَقَدْ نَجَحْتَ فِي تَحْقِيقِ ذَلِكَ. وَرُبَّمَا لَمْ تَكُنِ تَمْلِكُ شَيْئًا، لَكِنَّكَ الْآنَ تَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ. وَقَدْ تَسَلَّقْتَ السُّلْمَ. لَقَدْ نَجَحْتَ فِي تَحْقِيقِ ذَلِكَ. فَأَنْتِ أَحَدُ أَعْظَمِ الْأَمْثَلَةِ فِي الْإِلَهَامِ الْأَمْرِيكِيِّ، ثَرِيٌّ عِصَائِيٌّ. لَكِنْ، هَلْ اشْتَرَيْتِ الْحِكْمَةَ؟ هَلْ يُمَكِّنُكَ شِرَاءُ الْحِكْمَةِ؟ هَلْ يُمَكِّنُكَ الذَّهَابُ إِلَى الْمَتَجَرِّ؟ هَلْ يُمَكِّنُكَ تَصْفُحُ مِتْجَرِ الْكَيْتْرُونِيِّ، وَتَضْعُفُهَا وَتُضِيفُهَا، أَيْ الْحِكْمَةَ، إِلَى عَرَبَةِ الْمُشْتَرِيَّاتِ وَتَشْتَرِيهَا، وَيُوصِلُهَا إِلَيْكَ عَامِلُ التَّوَصِيلِ فِي شَاحِنَةٍ، شَاحِنَةٍ بَيْتِيَّةِ اللَّوْنِ أَوْ شَاحِنَةٍ فِيدِكْسِ (FedEx)، وَتَأْتِي إِلَيْكَ فِي صُنْدُوقٍ مَكْتُوبٍ عَلَيْهِ "حِكْمَةٌ"، فَهِيَ الْحِكْمَةُ، لِفَهْمِ كُلِّ الْأُمُورِ. إِنَّهَا مَعْرِفَةٌ كَيْفِيَّةٌ فَهْمُ كُلِّ الْأُمُورِ. فَتَفْتَحُ الصُّنْدُوقَ، وَتَجِدُهَا عِبَارَةً عَنْ جِهَازٍ مِنْ شَرِكَةِ أَمَازُونِ (Amazon)، ذَلِكَ الْجِهَازُ الَّذِي يَتَتَاعُونَهُ حَالِيًا، الَّذِي يُدْعَى أَلِكْسَا (Alexa)، فَتَتَحَدَّثُ إِلَيْهَا، وَتُجِيبُكَ بِمَا تَرَعَّبُ فِيهِ، فَهَذَا الْجِهَازُ قَدْ يَزُوْدُكَ بِالْحِكْمَةِ. "أَعْطِينِي الْحِكْمَةَ. أَخْبِرْنِي، أَخْبِرْنِي عَنِ الْحِكْمَةِ". فَتَتَوَقَّفُ عَنِ الْحَدِيثِ إِلَيْهَا، تَتَوَقَّفُ لِثَانِيَّةٍ وَإِذَا بِصَوِّهِ أَزْرَقٌ خَافِتٍ يَشْعُ، وَيَقُولُ لَكَ: "أَنَا لَا أَفْهَمُ سُّؤَالَكَ".

لَقَدْ بَحَثَ أُيُوبُ عَنِ الْحِكْمَةِ. الْعَالَمُ يَبْحَثُ عَنِ الْحِكْمَةِ. الشَّبَابُ يَبْحَثُونَ عَنِ الْحِكْمَةِ. طُلَّابُ الْجَامِعَةِ يَبْحَثُونَ عَنِ الْحِكْمَةِ؛ يَبْحَثُونَ عَنِ مَعْنَى الْحَيَاةِ، مَا الَّذِي يَشْرَحُ كُلَّ الْأُمُورِ مَعًا. "لِمَاذَا أَنَا هُنَا؟" وَ"مَا هِيَ غَايَتِي؟" وَ"مَا هِيَ وَظِيفَتِي؟" لِدَا، أُيُوبُ كَانَ يَتَحَيَّلُ هَذَا فِي تَشْبِيهِهِ التَّعْدِينِ عَنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ.

الإنسان يستطيعُ فعلَ الكثيرِ جدًّا. فلا يُصدِّقُ ما يستطيعُ الإنسانُ فعله. فهل يفتني الإنسانُ الحكمة؟ هل هو يدركُ هويته؟ أمَّا الحكمةُ فمن أين تُوجدُ؟ ثمَّ تروُنَ جوابَ أيُّوبَ في الآيةِ ٢٣ التي تقولُ:

"اللهُ يفهمُ طريقها، وهو عالمٌ بمكانها". في الواقع، إنَّه مُجرَّدُ تلميحٍ بسيطٍ إلى ما السبيلُ المتَّجِهُ إليه سفرُ أيُّوب. أين تجِدونَ التفسيرَ الشاملَ الذي يشرحُ كلَّ الأمورِ ويربُّطها معًا، الذي يفهمُ حتَّى مُشكلةَ الألمِ والمُعاناة؟ والإجابةُ هي: اللهُ يفهمُ هذه المُشكلةَ. فأَيُّوبُ هنا قد بدأ في إدراكِ أنَّ ذلكَ الإنسانَ، الذي بمجهوده وبجته، لا يستطيعُ فحصَ أعماقِ الواقعِ الذي ينطوي على مثلِ هذه الأمورِ مثلِ الألمِ والمُعاناة. لكنَّ اللهَ يستطيعُ، فالخضوعُ له، والثقةُ به هما حيثُ نجدُ الحكمةَ.